خطرات حرة :

مجتمعنا المصرى
بين المتفائلين والمتشائمين

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك
المستشار الملكى ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

تحدثت أحاديث شتى تناولت بها ما يشغل بال المفكرين وذوى الرأى من قضايا مجتمعنا المصرى ومشكلاته القائمة . وكان آخر ماتحدثت فيه موضوع الطفولة وأثر الأم فى تنشئتها وتساءلت ماذا أعددنا لأطفالنا من مؤسسات تربية ومعاهد إعداد وبرامج إصلاح. وعنّ لى بعد ذلك أن أسأل نفسى : هبنا بلغنا الغاية من رعاية الطفولة على الوجه المنشود فما هو الأفق الذى يتلقى الطفل حين يشب رجلا كان أو امرأة، وأى ميدان ثقافى أو صحى أو اجتماعى ينتظر طفولتنا الغضة ليطبعها على غرارها و يصبغها بصبغته ؟ أهى ميادين صالحة ليحيا فيها الفرد حياة كريمة طيبة أم أننا دعاة الى العناية بأطفالنا اليوم لكى نقذف بهم غدا فى مجتمع كفيل بالقضاء عليهم قضاء الجور والاعساف ؟ ! إذن لنرسل أعيننا تطوف حول المجتمع المصرى طوفة عابرة ولندع لخواطرنا أن تسترسل فيما تراه الأعين طليقة حرة ، ولنكن صرحاء فيما نشهد وما نصف فما أنفع الصراحة فى مواقف النصح والإرشاد .

الحق أن الرأى فى مجتمعنا المصرى مختلف بين المتشائمين والمتفائلين ولكل من الطائفتين وجهة نظر يحرص على تأييدها جاهدا . فأما طائفة المتشائمين فيصارحون بأن المجتمع لم تتوافر له عوامل السلامة . تفتقد العامل الذى يصون الأخلاق من الهوى فتفقده، وتتبين العامل الذى يرفع مستوى المعيشة فلا تجده ، وتتلمس التآزر الثقافى فاذا هو تافه المظهر ضعيف الأثر. فالشعب يمارس عيشة لا يرضاها شعب يطمح الى مرتبة إنسانية كريمة، وهل تتكامل عناصر القوى لشعب لا تنهاله ثقافة يتمتع بها سواده الأعظم ، وأنى لشعب غير مستنير بنور المعرفة أن يدرك ماله من حق و ينهض بما عليه من تكاليف. وكيف لشعب تشيع فيه الجهالة أن يكون له رأى عام يستمع له حكامه ويخشاه الذين يخرجون على النظم السليمة لقيادته ؟ وعند هؤلاء المتشائمين أن العبرة لا تكون بنسبة من المتعلمين تبلغ العشر أو تزيد قليلا. فالشعب المستنير هو العامة لا الخاصة ، والملايين لا الألوف. وعلى من يطمع فى قيام القيادة أن يمثل لهم شعبا يحسن فهم

ما يلقون اليه من الخطط. وما يشيرون به من المساعى، ويملك القدرة على تنفيذ ذلك تنفيذ خيرة وتقدير. و بعيد أن يتسق للشعب هذا كله الا بقدر من الثقافة له حد أدنى يضمن الاستفادة. وما ترجع المتاعب التى تلقاها الحكومات على تعاقبها والمصلحون على وفرتهم فيما يبذلونه من جهد وما يسنونه من تشريع وما يدعون اليه من إصلاح الا لأن الشعب فى كثرته الغالبة لا يفقه ما يقال ولا يستطيع أن يقدر ما يصنع وهو إنما يخشى القوانين أو على الأصح يلزم حدودها فرارا من العقوبة وتخلصا من التبعة، وكثيرا ما يسعى للتحايل على التخلص من أوامرها ونواهيها كلما استطاع لذلك سبيلا. ولو كان سواده مستنيرا لاستلهم المصلحة دون عنت ولأغنى الحكومة عن جهود تفرضها بها عليه فرضا. أليست الحكومة مضطرة للاستعانة بالثمانون وزواجره لتحمل الفلاح على مكافحة الآفات الزراعية التى تأكل ثروته أكلا. وهل يقع مثل هذا لو تمتع السواد الشعب ثقافة تبصره بالحياة فيجانب الضرر من تلقاء نفسه ويتحرى التوقى بلا تكليف ؟ الواقع الذى لا مرية فيه أن ثمانين فى كل مائة على الأقل من أهلينا ليس لديهم من العلم سم خياط ينفذ منه النور ليريهم وجه الطريق. وتكملة الواقع الباعث على الألم المض أن خمسا وتسعين فى كل مائة من النساء على هذا الحد من الجهالة والأمية. فكيف تأتى جهود المثقفين تمارها وهم العدد الأقل إزاء السواد الأعظم؟ الا يكون طبيعيا والحالة تلك أن القلائل الذين تضمهم معاهد التعليم الأولى يخرجون الى هذه البيئة الزاحمة فلا يلبثون أن يعودوا أميين كما كانوا ؟ أو ليست الآلاف المؤلفة التى أنفقت على التعليم الأولى كمثل المجهود الذى بذله "جحا" فى ادارة ساقيته إذ كان يمتح بها من البحر ليعب فى البحر فلا جهدا أبقى ولا أرضا سقى.

ولا يفتأ المتشائمون يذكرون المناعة الصحية التى تعين على الاضطلاع بأعباء الحياة ويسألون ماذا عند الشعب من أنبائها. وهذه الاحصائيات القاطعة تشى لنا بأن كل فرد من أهل الريف يعتصم بأربعة أمراض يكفل كل منها أن يهد الجسم ويشل النشاط. على حين أن الريفيين هم عنصر الجهاد فى سبيل إنبات الطيبات وتوفير الأرزاق وأكثرهم لا يبقى له بعد القوت ما يغالب به المرض بالتطبيب، أضف إلى ذلك أن القادرين وغير القادرين منهم سواء فى الايمان بالخرافات والتعويل عليها فى الاستشفاء. فالآفتان: الجهل والمرض، يعملان فى الريف معا على هدم القوى وتقويض العزائم. ولا يكون من وراء ذلك الا نقص الثروة وضعف الانتاج.

وأمام المتشائمين الميدان الاقتصادى يعرفون له أثره فى دعم المجتمع و إصلاح مرافقه فى شتى نواحيه. فهل يصلح مستوى الاقتصاد لمجتمعنا المصرى، وهل يهيىء له حياة عزيزة الجانب ؟ ها نحن أولاء نرى المستوى الاقتصادى للشعب على درجة من الهبوط لا تتسق معها إنسانية ولا تقوم بها كرامة. وما نحسب أن هذا المستوى ييسر القوت وما اليه من

مطالب الحياة لأى شعب فى أدنى عصور التاريخ وأشدها عسرا على أهليها . فالنتيجة التى خرج بها الباحثون أن متوسط إيراد الأسرة فى طبقات العامة بضعة جنيهات فى العام. فماذا يجدى هذا القدر إزاء مقتضيات العيش ؟ ولعل من الأدلة الحاسمة على صحة هذه النتيجة المحزنة أن الحكومة أعلنت رفع الضرائب عن الأرض المغلة إذا لم تزد عن خمسين قرشا فى العام ، فوضح بالتنفيذ أن هذا الإعفاء يتناول الوف الألوف من الملاك . فأى حقيقة تكاشفنا بها هذه النتيجة فى بلد عماده الثروة العقارية ؟ إذن لا جدال أن الوف الألوف من الأهلين لا تزيد ثروتهم على ثلث فدان أو نصفه . وماذا يغل نصف الفدان أكثر من أربعة جنيهات خلال ثنى عشر شهرا ؟ فالقائلون بأن متوسط الايراد للأسرة بضعة جنيهات سوية لا ينقصون فى الحساب ولا يخطئون فى التقدير . وإنما تروعنا هذه النتيجة البشعة فنأبى تصديقها هربا مما نجده من الروع .

ويدق المتشائمون ناقوسهم منادين بأن المجتمع المصرى لا توازن فيه بحيث يسير قدما فى مهيع الحياة . فالهوة رحبة المدى بين المتعلمين وغير المتعلمين . مئات فى ترف للعلم ويسر المعرفة تدارسوا علوم الأولين والآخرين وبلغوا بتفكيرهم عالى الآفاق ، وعاشوا فى أراجيهم يشرفون من عالم السماء . ولكن هناك ألوف الألوف لا تعرف من ذلك كله شيئا . وهى سواد الشعب وأعصابه العاملة . فالمجتمع المصرى يفقد الطبقة الوسطى التى تصل الأعلى بالأدنى يفقد الاستنارة العامة . المفكرون لا يجدون من يتبق عنهم والكاتبون لا يلقون من يقرأ لهم والدعاة للإصلاح لا يلقون من يتف حولهم . فثمة نفار بين جمع كبير هم الأميون الأهلون وثلة قليلة هم المتعلمون الفرماء — وهذا هو السر الخفى فى أن المتعلمين زادوا عن الحاجة فى مصر . فالمحامون لا يجدون المجال أمامهم متسعا والمهندسون لا يصادفون العمل موفورا ، حتى من تخرجوا فى المدارس الزراعية تضيق بهم مصر وهى البلد الزراعى فى ماضيه وحاضره على وفرة مافيه من أراض تفتقر إلى الاصلاح والتثمير . فالتعليم فى مجتمعنا المصرى إلى اليوم كالطعام المقدم إلى مريض لا يشتهيه فهو عن حاجته يفيض . وهل فى المكنة إقناع جاهل أن يقيم على شؤون حسابه أو مزارعه أو قضاياه متخصصين فى التجارة والزراعة والقانون . فلا بد إذن أن تنشأ عطلة المتعلمين . ولا مخلص من قيامها واستمرارها مادامت لأغلبية العظمى من أصحاب المهن الحرة أميين لا يفقهون رسالة العلم ولا يأمنون على أعمالهم إلا من كان على شاكلتهم فى الجهالة العمياء .

وكلما أنعم المتشائمون أنظارهم فى جنبات المجتمع ارتدوا يأسا من الخير إذ يشعرون بفقدان التعاون وروح المؤازرة بين الناس . فقد يضم البيت الواحد جمعا من السكان لا يعرف الجار جاره ، ولا يحس أن عليه واجبا قبله وكأنه لا صلة له بدين يقول رسوله " مازال جبريل يوصينى بجار حتى ظننت أنه سيورثه " ومما يؤسف له أن تحضر الحديث عدا على كثير

من التقاليد التي لمسناها فى مصر إلى عهد قريب، ومن بينها تواصل الجيرة وتبادل المعونة . فأما اليوم فقد اندثرت هذه التقاليد وسرى فى الناس عامل الأثرة والتوحد فأصبحوا أفرادا لا تتلاقى أيديهم على جلب منفعة ولا دفع أذى . ومن مظاهر هذه الروح الشريرة ما تراه فى ظل الأحوال العصيبة القائمة اليوم فالمترفون لا يزالون يتقلبون فى عطاف النعمى . ولا يجهول فى خاطر الكثير منهم أن ألوفا من بنى جلدته يعانون فى تلك الأوقات الشداد شظف العيش إذ يبلغ أن يعيش الفرد منهم فى هذا الغلاء الحار وكل نفقته خمسون قرشا فى الشهر . فهل نبضت عاطفة الخير بين جنوب الكثرة من أولئك المترفين فأشفقوا على تلك الأولوف المعذبة التى تقاسى فى حياتها الكروب ؟ أليس مما يبعث على الدهشة والعجب أن يقع هذا فى شعب تعتنق أغلبيته الإسلام ، دين الصدقة ، دين الزكاة ، دين البر بالفقراء وذوى الحاجة ، دين العدالة الاجتماعية فى أكمل صورتها ؟ إن الدين المعاملة فإن لم يكن لاسلامنا أثر فى التراحم فلا دين ، وإنما هى صور عقيدة ودعوى تعوزها الحجة ، ما أصدق شوقى حين يندد بها :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشية وتقى كذابا

وتلفيهم حيال المال صما إذا داعى الزكاة بهم أهابا

لقد كتموا نصيب الله فيه كأن الله لم يحص النصابا

تلك شكاية المتشائمين قصصتها مجملة . ولهم فى تفصيلها حقائق ترجف منها القلوب وتضطرب المسامع . ولكن المتفائلين من وراء ذلك يتفون أن توازن بين ماضينا القريب وحاضرنا الراهن . فان الموازنة جديرة أن تهدى إلينا الطمأنينة والرضا . أليس التعليم قد انتشر انتشارا بعيدا بالاضافة إلى ما كنا عليه . أوليست المرأة قد أخذت تتبوأ مكانتها ودرجت ترفع صوتها . أوليست الحالة الاقتصادية أمثل من ذى قبل والانتاج أكثر ووفرة الصناعات أكثر نماءا . والمال تتداوله الأيدى وتبنى به الثروات ، ألسنا قد أصبحنا نشعر بالواجب وندعو إلى الاصلاح ونقبل على البر ؟ ربما كان فى هذا بعض الحق بيد أن نهضة الشعب لا تقوم على مظاهر براقة . فليست الحضارة علما بلا خلق ، وليس العلم إلماما بلا تعمق ، ولا تخصيصا بلا تعميم ، وليس الغنى أن تكون الثروات متكدسة فى أيدى العشرات . فان وقف الأمر عند ذلك كانت الحضارة زائفة لا يطمئن إليها إلا من يحوز عليهم الخداع .

ولعلى غير محتاج إلى أن أصرح بأنى لست محايدا فى قضية المجتمع المصرى بين طائفة المتفائلين وطائفة المتشائمين . فانى إلى التشاؤم أميل . والتفاؤل فى مثل هذه الخطوب الجسام نوع من التراخى فى نظرى والا كتفاء بالبريق والقناعة بسفاسف الأمور .

وأرانى بعد ذلك أسأل : هل تغيرت حالنا خلال أربعين سنة . وهل كان التغير إلى الأحسن أو إلى الأسوأ ؟ لفت نظرى وصف شوقى للمجتمع الذى عاش فيه منذ حقبة من الزمان حين يقول :

لما رأيت سواد قو مى فى دجى ليل بهيم
يسقون من أميـة هى غصة الوطن الكظيم
وسراتهم فى مقعد من مطلب الدنيا مقيم
يسعون للجاه العظيم وليس للحق الهضيم
أيقنت أن الجهل علـ ـة كل مجتمع سقيم

فتساءلت هل تزايلت الأمية . أم مايزال الشعب يتمتع بهذا الرحيق المختوم، وهل خاض السراة غمار الحياة . أم مازالت كثرتهم تتلمس رفعة الجاه وتزهد فى نصرة الحق ؟

وفى أندلسيته يقول شوقى :

شكرت الفلك يوم حوين رحلى فيالمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحتنى من كل أنف كأنف الميت فى النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى يوجه كالبغى رمى التقـايا
وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فهل صلح الأمر ؟ أما تقرب هذه الأبيات إلى أعيننا صورة من بعض نواحى مجتمعنا اليوم . أليس بيننا من يغمض عينه عن هذه الحقيقة الخالدة وينسى الا قيامة لأمة تهوى أخلاقها إلى الحضيض ؟

وشوقى يقول فى الغلاء ، نقص القوت :

وتسمع رحمـة فى كل ناد ولست تحس للبر انتـدابا
أكل فى كتاب الله إلا زكاة المال ليست فيه بابا ؟
إذا ما الطاعمون شكوا وضجوا فدعهم واسمع الغرثى الـغابا

كانه طيب الله ثراه صاغ هذه الأبيات ليقرع بها أسماعنا فى أيامنا الحاضرة التى اشتدت على ذوى الخصاصة وتعذرت معها المعيشة . فالضجة والشكاية تسمعها أكثر ما تسمعها من جانب الطاعمين القادرين على مجابهة الشدائد .

وهو يقول على لسان تولستوى وأب العلاء فى مناجاة عقدها بينهما بخياله الرائع وفيض حكمته السامية :

تسائلنى هل غير الناس ما بهم ... وهل حدثت غير الأمور أمور
وهل آثر الإحسان والرفق عالم ... دواعى الأذى والشر فيه كثير
وهل سلكوا سبل المحبة بينهم ... كما يتصافى أسرة وعشير
وهل عالج الأحياء بؤسا وشقوة ... وقل فساد بينهم وشرور
قم انظر وأنت المالئ الأرض حكمة ... أأجدى نظيم أم أفاد نثير ؟
أناس . كما تدرى ودنيا بحالها ... ودهر وفيّ تارة وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد ... تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعا فى الحياة كأنها ... ملاعب لا ترخى لمن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى ... وغش وإفك فى الحياة وزور
وحور قول الناس مولى وعبده ... إلى قولهم مستأجر وأجير
وأضحى نفوذ المال لا أمر فى الورى ... ولا نهى إلا ما يرى ويشير

ذلك وصف المجتمع كما رآه شوقى . فهل استلهم هذه الصفات إلا من بيئته التى عاشرها . وهل كان الا متأثرا بها . وهل تغير الكثير مما رسم معالمه و ابدى مقابحه . وهل حدثت غير الأمور أمور ؟

ولكنى على الرغم من تشاؤمى لألمح بارقة أمل فى ناحيتين :

الأولى — نهوض المرأة . فيجب أن يعقد بناصيتها كل رجاء . لأنها إن فهمت رسالتها وأعدت حياتها لها وعملت فى ميادينها الطبيعية مخلصة جاهدة وطرحت البهرج والزخرف